أين وطني ؟

لحضرة الكاتبة الكبيرة النابغة صاحبة التوقيع

عند ما ذاعت أسماءُ الوطنيات

كتبتُ اسم وطني ووضعتُ عليه شفتيَّ أقبلهُ ،

وأحصيتُ آلامهُ مفاخرةً بأنَّ لي كذوي الأوطان وطناً

ثم جاء دورُ الشرح والتفصيل فألممتُ بالمشاكل التي لا تُحلّ ، وحنيتُ جبهتي وأنشأتُ أفكِّر به

وما لبث ان انقلب التفكّر فيَّ شعوراً

فشعرتُ بانسحاقٍ عميقٍ يُذلّني

لأني ، دون سواي ، تلك التي لا وطن لها

***

يوقظني في الصباح نفيرُ الجيوش المودِّعة . ولدويِّ أبواقِ النحاس أنغامٌ تُثقلها دموعُ الفراق ، وأهازيجُ يجنِّحها طابُ التفادي والاستبسال . فأمقت الظافرين وأودّ لحظةً ان أتوحد واياهم لأنسى في ثروتهم فقري وفي بطشهم هواني

وإذ تمرّ مواكبُ الأمم المظلومة منكسةً أعلامهـا وراء نعوش الشهداء ، وهتاف الحرية والاستقلال يتغلّبُ على أنين الثكل والتفجّع منها — إذن أعتزّ لأني ابنة شعب في طور التكوّن والارتفاع ، لا تابعة شعب تكوّن وارتفع ولم يبق أمامهُ سوى الانحدار

ولكنَّ الشعوب تهمس همساً يطرقُ سمعي : فهؤلاء يقولون « أنتِ لستِ منا لأنكِ من طائفةٍ أخرى » . ويقول أولئك « أنتِ لستِ منا لأنكِ من جنس آخر »

فلماذا أكون، دون سواي: تلك التي لا وطن لها؟

***

ولدتُ في بلدٍ، وأبي من بلدٍ، وأمي من بلدٍ، وسكني في بلدٍ، وأشباح نفسي تنتقلُ من بلدٍ إلى بلدٍ. فلأيِّ هذه البلدان انتسبُ، وعن أيِّ هذه البلدان أدافعُ؟

يمضي الموتى تاركين للأحفاد وراثات حسيَّة ومعنويَّة ينعمون بها، وشرفاً قومياً يؤيدونهُ، وتقاليد يحافظون عليها. أما أنا فلم يبق لي من آثار موتاي إلا الاثقال المُرهقة يديَّ وعنقي. أثقال اذا حاولتُ طرحها والفرار جرَّت قدماي ما هو أثقل منها — فهبطتُ على طريق جلجلتي تشير اليَّ أصابع الساخرين من الغرباء، ومن المتشفّين، ومن الذين أذنبتُ اليهم بأن لم أصدق ما فُطروا عليه من الخسة والحقارة فأعطيتهم بلا حساب. وليس من يد رحيمة تعينُ وتؤاسي

وأما متاع موتاي فاستولى عليه أولئك الأباعد. ولو تخلّوا عنه لتحكم بي هؤلاء الأقارب الذين عيَّرتني منهم التبذل ونكران الجميل بحسنات انقلبت لديهم سيئات، وأنكر عليَّ الحسد منهم والخمول التمتع بما اشتريته بالعمل والجهود والعبرات.

بأيِّ اللهجات أتفاهم والناس، وبأي الروابط أرتبط؟ أأتقيد بلغة قومي وهي — على زعمهم — ليست لي ولم توجد لأمثالي؟ أم أكتفي بلغة الغرباء وأنا في نظرهم مترجمة عليها؟ أأصون عادات قديمة يحاربها اليوم الناهضون، أم أقبلُ الاساليب الحديثة فأكون لسهام المحافظين هدفاً؟

إن أنا جاملتُ الغنيَّ توصلا إلى مالا غنى عنه قالوا عبدة تمرّغ جبهتها في التراب وتتزلف. واذا جعلتُ لي من المصارحة سلاحاً ومن الأنفة حصناً، سطت عليَّ اليد الحديدية، ومزقتني السنةُ «الاخوان»، وانفضَّ من حولي «المخاصون» لأن كلاً مسؤول عن مساعدة نفسه بديّاً

فلماذا قُدّر عليَّ ان أكون ابنة وطن تنقصهُ شروط الوطنية، فأمسي بين الورى تلك التي لا وطن لها؟

***

كل أمة تحدث عن عظمتها وفضلها على المدنية ونبلها في صيانة حقوق الضعفاء فبأي الأمم أعجب ؟

وكل أمة — دون سواها ! — تحمي ذمار الحرية وتذود عن صرح العدل والمساواة والاخاء — فعلى أي الأمم أتكل ؟

وكل دين — دون سواه — احتكر لاتباعه الشرف والفضيلة في الحياة ؛ والسماء والألوهية بعد الممات ؛ — فأي الاديان أعتنق ؟

وكل حزب يدعي الصدق والعصمة ؛ وكل فرد صاحب الرأي يضحي الخير الخاص للخير العام ، — فأي الاحزاب أصدق وأي الأفراد أتبع ؟

ماسمعت وصف بلاد إلا سعى اليها اشتياقي ،

ولا حُدِّثتُ عن بسالة أمة وسؤددها إلا تغنيتها أمتي ،

ولا أصغيتُ الى صوت قوم الا خلته صوت يأسي وأملي ،

ولا تبينت عيوب شعب ومفاخره إلا أدركتها صورة مفاخري وعيوبي ،

ولا رمتُ طائفةً طائفةً بالتعصب والمغالاة إلا وجدتُ في هذه المغالاة وذاك التعصب ،

ولا تخيلتُ مسافات الأرض وأبعاد الفلك والصحارى والبحار والكواكب والعوالم الا اهتاجني الحنينُ اليها كأنها أوطان يردد هواؤها ترنيمة طفولتي ، وتنتظرني فيها قلوب الاحباب والخلان

أما وقوى إعزازي تتوزع باستهتار وجنون فلماذا تتجمع قوى اكتئابي عميقةً مرهفة لأني وحدي — وحدي في الدنيا — تلك التي لا وطن لها ؟

* * *

بنسيم وطني امتزج الوحي والنبوات ،

ومع أشعة الشمس فيه انتشرت سور الجمال ، فكانت له حياة وهاجة متألقة وراء مظاهر الجود والهجران

وخيالات الآلهة تسير أبداً فيه متمهلة متأملة ،

من القمم والوديان ، من الصخور والينابيع ، من الاحراج والمروج ، تتعالى معاني بلادي في الضحى . وعند الشفق تتكامل أرواح الاشياء وتتجمهر كأنها تتداول في إنشاء عوالم جديدة

أحبّ عطور تربة الجدود ورائحة الأرض التي دغدغها المحراث منذ حين ،

أحبّ الحصى والأعشاب ، وقطرات الماء الملتجئة الى شقوق الأصلاد

وأحبّ الأشجار ذات الظلِّ الوارف أكانت محجوبة في أحشاء الوادي ، أم أسفرت مشرفة على البحر البعيد ،

وأحب الطرق الوعرة المتوارية في قلب الغاب ، وتلك المتلوّية على أكتاف الجبال كالأفاعي البيضاء ، وتلك السبل الطويلة الممتدة الممتدة وكأنّ الغبار الذهبي منها ينتهي الى قرص الشمس

ولكن أيكفي ان نحبّ شيئاً ليصير لنا ؟ وهكذا رغم حبي الأنبَح أراني في وطني تلك الشريدة الطريدة التي لا وطن لها !

* * *

جرّبتُ من الوطنيات صنوفاً : وطنية الأفكار ، والأذواق ، والميول ،
وتلك الوطنية القدسية المثلى : وطنية القلوب
فوجدتُ في عالم المعنى ما عرفتهُ في عالم الحسّ
إلا بقعة بعيدة تفردت فيها الصور وتسامت المعاني .
ثقفني أبناء وطني ، وأدّبني أبناء الأوطان الأخرى
وأسعدني أبناء وطني وأسعدني الغرباء أيضاً ،
ولا ميزة لأبناء وطني في أنهم أوسعوني إيلاماً ، فقد نالني من الغرباء أذى كثير :
فبأيّ أقيسة أقيس أبناء الوطن ؟ ...
ولماذا أكونُ أنا وحدي تلك التي لا تدري أين وطنها ؟

* * *

أيها السعداء ذوي الأهل والأصدقاء والأوطان : عرّفوا لي سعادتكم وأشركوني فيها !

رضيتُ حيناً بأن ليس للعلم والفلسفة والفنّ من وطن . أما اليوم فصرت أعرف ان للعالم والفيلسوف والفنان وطناً . صرتُ أعرف ضعف الانسان الذي يميل الى النوم والراحة فيطلب مضجعاً ناعماً لجسمه المضنى لا مرجاً واسعاً يتناوله منه الحرّ والبرد ولا بحراً عرمرماً تتقاذفهُ منه اللجج

* * *

إني أعيد تنظرك الصامت ، أيها الحكيم القديم ، أنت الذي بعد ان اكتشفت آيات الفكر وعجائبه أرسلت زفرة كأنها شكوى الدهور فقلت . إنما أريد صديقاً لأموت لأجله !

وأنا أتهيب الآن خاشعة أمام ذكرك ، واردّد مايشبه قولك : إنما أريد وطناً لأموت لأجله — او لأحيا به !

مي

صحيفة المرأة

ننقل تحت هذا العنوان كلما نطالعه فى المجلات والجرائد الغربية عن نهضة النساء وكلما يعود على المرأة بالرقي والفائدة الشخصية او المنزلية وما يساعدها على تربية أولادها وادارة شؤون المنزل واننا ننشر بكل ارتياح مايردنا من الملحوظات بشأن مانكتبه من حضرات الأوانس والعقائل الفاضلات (الاخاء)